قال ابن رشد : "من رفع الأسباب فقد رفع العقل "

كتاب تهافت التهافت

وضع فيلسوف قرطبة (ابن رشد) كتابه للرد على كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة"، ويقصد الغزالي بعبارة "تهافت الفلاسفة" تناقض آرائهم وعدم بلوغهم فيها مرتبة اليقين. ويتكون كتاب الغزالي الذي رد عليه ابن رشد من عشرين مسألة: ست عشرة منها في "الإلهيات" وأربع في "الطبيعيات". وتدور هذه المسائل حول القضايا التي يتخذها علم الكلام موضوعاً له مثل قدم العالم أو وحدته، وذات الله وصفاته ونفي الشريك عنه... الخ. أما الطبيعيات فقد تعرض فيها الغزالي لأربع مسائل اعتبرها تتناقض مع العقيدة الدينية كما يقررها المذهب الأشعري، وهي: السببية، وجوهرية النفس واستقلالها عن البدن، ومسألة خلودها، وأخيراً حشر الأجساد. أما المسائل التي هاجم فيها الغزالي ابن سيناء في "قسم الطبيعيات" فهي لا تنتمي إلى "العالم الطبيعي" كما ألف فيه أرسطو، بل إلى علم الكلام.

يعتبر كتاب ابن رشد "تهافت التهافت" بحق أنه دفاع عن الرؤية العلمية وأخلاقيات الحوار، فهو يؤكد على الاعتراف بحق الاختلاف وبالحق في الخطأ، وضرورة فهم الرأي الآخر في إطاره المرجعي الخاص به، والتعامل مع الخصم من منطلق التفهم والتزام الموضوعية، والاعتقاد في نسبية الحقيقة العلمية وفي إمكانية التقدم العلمي.

لقد كان ابن رشد وهو يواجه نص الغزالي يقوم بتوضيح طبيعة المشكلة موضوع النقاش والنقد، ثم يعمل على وضعها في سياقها النظري بإسنادها لأصحابها أو إرجاعها لسياقها العام، ليقوم بعد ذلك بالرد، حيث تكون القضايا موضوع السجال قد أصبحت مرتبة في إطار من النظر الفلسفي الواضح، ثم تبدأ عمليات الدحض والبرهنة والإثبات بالصورة التي تكشف حقا مقترح ابن رشد الرامي إلى النظر إلى كتاب تهافت الفلاسفة باعتباره مجرد كتاب في التهافت، تهافت الغزالي وتناقض خطابه.

وفي الحفريات التي أنجز مقدم الكتاب في مدخله العام نلاحظ كذلك إلحاحه على نقد بعض الأحكام المتوارثة في موضوع كتاب: تهافت الفلاسفة. فقد وضح أن الصراع المذهبي في تاريخ الإسلام في زمن الغزالي يعتبر السبب الداعي إلى التشهر بالفلاسفة وإبراز تهافتهم، فالأمر لا يتعلق في نظره بموقف الفلاسفة من الدين بل مواقف بعض الفلاسفة من اختيارات عقائدية وسياسية محددة.

وبناء عليه فإنه لا يمكننا أن نقبل بناء على أحكام عامة موروثة ومتداولة وبدون نقد ولا تمحيص أن نص التهافت الذي كتب الغزالي شكل الضربة القاضية على الفلسفة في تاريخ الفكر الإسلامي.

تتجلى مآثر ومنجزات هذه الحلقة في المعطيات الآتية:

1 . لقد قرأ ابن رشد الغزالي بغرض تبيان مراتب الأقاويل المشتبه فيها في مستوى التصديق والإقناع، وذلك من أجل إبراز قصورها عن مرتبة اليقين والبرهان، وكان مرجعه في هذه العملية المعلم الأول.

2 . تعامل ابن رشد في نصه مع أطراف متعددة، مع الغزالي وهو المساجل العنيد، ومع ابن سينا صاحب التوظيف المزدوج لارسطو (صوفي وشيعي)، كما استند إلى أرسطو وإلى مقدمات العقيدة الإسلامية.

3 . في مختلف أشكال التعامل مع المعطيات المذكورة كانت الخلفية النظرية الكبرى تتمثل في فصله بين الدين والفلسفة.

4 . يعكس موقفه من نص التهافت المنتقد موقفه من الأقاويل الجدالية والأقاويل السفسطانية، حيث انتصر في سياق البرهنة والإثبات لروح ومنطق الأقاويل البرهانية، معتمدما الوازع الأخلاقي والنزاهة في المعرفة، ومنتصرا حسب تعبير مقدم الكتاب لأخلاقيات الحوار والروح العلمية.

ومن خلال المعطيات التي ذكرنا اتجه صاحب تهافت التهافت لنسف نص الغزالي باعتباره مجرد نص متهافت لا ترقى معطياته إلى مرتبة اليقين.

يباشر النص وبروح سجالية قوية الرد على الغزالي في عشرين مسألة، 16 منها في الإلهيات و4 في الطبيعيات، أما المسائل المرتبطة بالإلهيات فأغلبها كلامي وهي تدور حول الموضوعات الكبرى الآتية:

قِدَم العالم وحدوثه –ذات الله وصفاته– نفي الشريك عنه.

أما مسائل الطبيعيات الأربع فهي:

–السببية– جوهرية النفس واستقلالها عن الحق –خلود النفس– حشر الأجساد.

وقد اعتبر مقدم الكتاب أن المعطيات التي ما تزال تتمتع بالحياة في نص تهافت التهافت تتمثل في قضيتين كبيرتين هما:

1 . مسألة رؤية العالم: الله وعلاقة الطبيعة والإنسان به، وهي قضية كلامية وفلسفية في الوقت نفسه، وقد وقف فيها ابن رشد مدافعا على طريقة أرسطو في النظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان.

2 . قواعد الحوار وأخلاقياته، كما بلورها النص، وقد حددها المقدم والمشرف على إصدار الكتاب في أربعة مبادئ رئيسية:

1 . الاعتراف بحق الاختلاف وبالحق في الخطأ.

2 . ضرورة فهم الرأي الآخر في إطاره المرجعي الخاص به.

3 . التعامل مع الخصم من منطلق التفهم والتزام الموضوعية.

4 . الاعتقاد في نسبية الحقيقة العلمية وفي إمكانية التقدم.

تلك هي العناصر التي ما تزال حية في نص ابن رشد، والمعطيات التحليلية السجالية الأخرى الواردة فيه تنتمي بلغتها ومحتواها ومفاهيمها إلى البنيات العتيقة في التراث الإسلامي، وهي محكومة في جوهرها بنظرة الفكر الإسلامي للعالم حيث تتداخل معطيات العقيدة مع مستويات تطور المعرفة والعلم في عصورنا الوسطى، أما العناصر التي اعتبرها مقدم النص حية فإنها المفاتيح التي تسهل إمكانية انفتاح فلسفة ابن رشد على الأزمنة التي تلتها، حيث تشكل مباديء الحوار التي صاغ الباحث قواعد مؤسسة للفكر الفلسفي الحديث، بل لعلها قواعد عامة لمشروع الحداثة كما تبلور في الفكر الحديث والمعاصر.

ورغم أن مقدم الكتاب يبني أحكامه الاستنتاجية على معاينته المباشرة للأثر الرشدي، وانطلاقا من قراءة تعمل على ترميم ثغراته وتحوير مفرداتها بالصورة التي تجعلها مطابقة لما

يعتبره عبارة رشدية ومفردات ومفاهيم بل ولغة رشدية، إلا أن قراءات أخرى للتهافت ولنصوص ابن رشد الأخرى ترسم لها حدودا تقف عندها ولا تتعداها، وذلك بحكم انتمائها التاريخي والنظري إلى منظومة في القول محكومة قبل ذلك وبعده بمقدمات عامة ومرجعيات مضبوطة من بين عناصرها الأساسية: قراءة معينة لأرسطو، وتعقل محدد للعقيدة الإسلامية، وتصور مرسوم سلفا للخاصة والعامة والجمهور، وهو الأمر الذي يعني أن الخلاصات المركزية التي يدافع عنها مقدم النص تدعو إلى النقاش، بل تدعو إلى إنشاء مقاربات متعددة من أجل مزيد من إشاءة النص، وإبراز مفعولاته في تاريخ الفلسفة